ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

The Manifestations of Bedouinism and Civilization in the Praises of Ibn Darraj al-Qastali

Assist.Prof.Dr.Faiza Ridha Shaheen

Tikrit University / College of Education for Humanities

* *Corresponding author: E-mail* :
faezarada@tu.edu.iq
٠٧٧١٢١٩٤١١٢

***Keywords*:**
Bedouin
civilization
praises
Ibn Darraj

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 4 Jan. 2021
Accepted 17 Feb 2022
Available online 10 Nov 2022
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©2022 COLLEGE OF Education for Human Sciences, TIKRIT UNIVERSITY. THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

This paper aims at tracing the aspects of both Bedouinism and civilization and their manifestations in the praises of Ibn Darraj al-Qastal. It is presented with an introduction, two sections, and a conclusion. The introduction deals with identifying the poet, the purposes of his poetry, and the characteristics of his praise. The first section deals with the manifestations of Bedouinism in the praise of Ibn Darraj al-Qastal in terms of artistic construction and material and moral manifestations. The second section deals with the manifestations of civilization in terms of artistic construction and aspects of civilization and its impact on the construction of Ibn Darraj's poem. Then, the conclusion sums upthe prominent findings of the paper, in addation to a list of sources and references which are adopted by the researcher in his search.

© 2022 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.29.11.1.2022.04

تجليات البداوة و الحضارة في مدائح ابن دراج القسطلي

أ.م.د. فائزة رضا شاهين/ جامعة تكريت / كلية العلوم الإنسانية

الخلاصة:

يهدف هذا البحث إلى تتبع مظاهر كل من البداوة والحضارة تجلياتهما في مدائح ابن دراج القسطلي،وذلك من خلال تمهيد ومبحثين، وخاتمة، يتناول التمهيد التعريف بالشاعر وأغراض شعره وخصائص مدحه والمبحث الأول يتناول تجليات البداوة في مدائح ابن دراج القسطلي من حيث البناء الفني، والمظاهر المادية والمعنوية للبداوة، والمبحث الثاني يتناول تجليات الحضارة من حيث البناء الفني ومظاهر الحضارة، وأثرها في بناء قصيدة ابن دراج،ثم الخاتمة التي توجز أبرز ما توصل إليه البحث،ثم

قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها الباحث في بحثه.

الكلمات المفتاحية : البداوة –الحضارة –مدائح – ابن دراج.

التمهيد:

التعريف بالشاعر :

هو أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي ، شاعر وكاتب من أهل (قسطلة دراج) ،وهي قرية غرب الأندلس منسوبة إلى جده ، وذلك لأنه من أسرة عريقة مرموقة[1] . ولم تتعرض كتب التراجم لنشأته الأولى، وأول خبر ذكرته كتب التراجم اتصاله بالمنصور ابن أبي عامر ؛ الذي مدحه بقصيدة أثارت الحسَّاد والحاقدين حوله، فوشوا به للمنصور واتهموه بالسرقة والانتحال ، ولكنه استطاع أن يتخلص من تلك التهمة ، فقد طلب المنصور منه أن ينظم شعراً لموضوع اقترحه المنصور ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلاً ، وبذلك زالت عنه التهمة، وأكد شاعريته، ومـــــدح ابن دراج المنصور بن أبي عامر ، وبعد أن مات المنصور، عمل مع الحاجب عبد الملك المظفر،ثم بدأت رحلاته، فاتجه إلى مدن ومناطق عدة ليمدح رؤساءها.[2] وديوان ابن دراج القسطلي متعدد الأغراض، ولكن المديح يغلب عليه ، وفي مدائحه يتحدث عن الغربة وألم الفراق والبعد عن الأحبة ، فلا تكاد تخلو قصيدة مديح من ذكر ألم الفراق والاغتراب والمعاناة في الغربة.[3]

المبحث الأول تجليات البداوة في مدائح ابن دراج القسطلي

مفهوم البداوة :

مفهوم البداوة في اللغة: البداوة بفتح الباء وكسرها ، الإقامة في البادية ،وهو ضد الحضارة والبداوة لغة بمعنى السبق، والبدو والبادية والبداوة خلاف الحضر البداوة ، وبدينا بمعنى بدأنا والبدو والبادية والبداء والبداة والبداوة خلاف الحضر[4]، والبادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري ، قيل : قد بدو[5]

مفهوم البداوة في الاصطلاح: هي محل خلاف بين الدارسين، فمنهم من يعرفها بأنها نمط حياة ،يقوم على التنقل الدائم ،من أجل طلب الرزق ،حول مراكز مؤقتة تتسم بعدم الاستقرار من حيث الموارد المعيشة المتاحة ، ومن حيث الأمن الاجتماعي والطبيعي فيها .[6] فالبداوة حالة من حالات الاجتماع معروفة في الصحاري وجماعات البدو ، يفيدون البدو من المراعي الواسعة والعشب الأخضر ، ويحولونها بفضل مواشيهم ، إلى لبن سائل ،أو جبن جامد ، ثم ينقلونه إلى أهل الحضر .[7] كما تعد البداوة أول نمط اجتماعي للحياة التي عاشـــــها الإنسان[8]

أولاً البناء الفني للبداوة في مدائح ابن دراج القسطلّي:

اللغة :

لكل شاعر تجربته الشعرية الخاصة ،وفي قدرته على استعمال اللغة في بناء نصه الشعري و" قدرة الشاعر ليست في اختيار اللفظ ،وإنما في قدرته على توظيفه ،وحسن استعماله" [9] فهناك ألفاظ في لغة ابن دراج ،مستمدة من التراث الأدبي القديم ، يستقيها الشاعر من ذلك المعين ، فقد استطاع الشاعر بعث الحياة في اللفظة القديمة ، وإدخالها في الجملة الشعرية بتوظيفها توظيفًا فنيًا ومن أمثلة ذلك قوله :

غيثٌ إذَا مَا الغيثُ أَخْلَفَ هاطِلٌ بَدْرٌ إذَا دَجَتِ الخطوبُ مُنيرُ

سامٍ إِلَى شِيَمِ الملوكِ مُنازِعٌ هادٍ عَلَى خُلُقِ الهُدى مَفْطُورُ

نجد الشاعر الحذق يشبه ممدوحه بكلمة (الغيث) وهى كلمة في اللغة تعني المطر الغزير الكثيف فأخذ منها جامع العطاء والنعم وكذلك كلمة (البدر) التي أخذ منها ما يناسب الممدوح وهو جامع العلو والسمو والمنزلة العليا ، كما أن الجمال اللغوي يتضح أكثر ويجعل المعنى أكثر ثراء وإمتاعًا للقارئ إخفاء (المشبه) أي الممدوح على سبيل الاستعارة التصريحية .

ونجد قدراته الفنية اللغوية تظهر بقوة في قوله :

وشمائِلُ المنصورِ قَدْ قَطَعَتْ ظُلْمَ الظَّلُومِ وسُنَّةَ البُخْلِ

مَلِكٌ أَجارَ الدِّينَ مَوْقِفُهُ بالسيفِ بَيْنَ الخَيْلِ والرَّجْلِ

ذات ابن دراج الابتكارية تظهر فى تشكيل النص الشعري من خلال استخدامه لكلمة (الشمائل) فهي لفظة شاملة لكل صفات الممدوح ، ومن ثم قصرها الشاعر على صفتي (القوة والكرم) ليقضى على المعتدين الظالمين وكذلك القضاء على سنة البخل بكرم ممدوحه ، إذًا فالمجاز المرسل هنا حقق انسجامًا رائعًا بين اللفظ والمعنى فكسا النص جمالًا لغويًا .

(أ) التكرار:

التكرار من الظواهر الأسلوبية التي يمكن أن تؤدي في القصيدة دوراً تعبيرياً واضحاً ؛فتكرار لفظة أو عبارة ما يوحي بسيطرة العنصر المكرر على فكر الشاعر أو شــعوره أو لا شعوره ، وقد عرفت القصيدة العربية ، منذ أقدم عصورها هذه الظاهرة اللغوية ،حيث أسهم التكرار بأنواعه في تمثيل موسيقى الشعر ،فالموسيقى الداخلية تنبع من اللفظ .ومن نماذج التكرار في مدائح ابن دراج القسطلي[10]:

وهُمْ ضَرَبُوا الآفاقَ شرقاً ومغرِباً بِجَمْعٍ يَسيرُ النَّصْرُ حَيْثُ يَسيرُ

وهُمْ يَستَقِلُّونَ الحــياةَ لِرَاغِبٍ ويَسْتَصْغِرُونَ الخطْبَ وَهْوَ كبيرُ

وهُمْ نَصَرُوا حِزْبَ النُّبُوَّةِ والهُدى وَلَيْسَ لَــهَا فِي العالَمِينَ نَصِيرُ

وهُمْ نَصَرُوا حِزْبَ النُّبُوَّةِ والهُدى وَمـا الــنَّاسُ إِلّا عائِدٌ وكَفُــورُ

فقد ورد التكرار في بداية الأبيات بصورة متتالية ،لحرف الواو والجملة الاسمية ، التي أتى خبرها جملة فعلية، في كل الجمل المكررة كما أسهم تكرار حرف الواو ، في تماسك الأبيات الذي تظهر في وحدة دلالية ،عبر تكثيف وتراكم الحرف ، فقد أضفى تكراره في بداية كل بيت مزيداً من الترابط الفني والموضوعي على الأبيات ،وأسهم في اتساع المعاني ، كما منح الأبيات مزيداً من الإيقاع الموسيقي المتوازي ؛ وقد أراد الشاعر من خلال التكرار أن يؤكد على صفات القوم الذين ينتسب إليهم الممدوح .

كما كرر الشاعر لفظة (السيف) ؛ التي تعد من الألفاظ البدوية ، في مواضع كثيرة من مدائحه من ذلك قوله في مدحه منذر بن يحيي حين ولّاه والده القيادة :[11]

صَدَقَتْ فَرَاسَتُهُ شَمَائِلَكَ التـــي مِنْه فأغْمَدَ سَيْفُـهُ وَاسْتَبدَلَكْ

وَأَخَذْتَ سَيْفَ النَّصْرِ مِنْه بِحَقِهِ وَحَمَلْتَ مِنْ أَعْبَائِهِ مَا حَمَّلَكْ

فالشاعر يربط كلمة (السيف) بقوة الممدوح وقدرته على تحمل الأعباء مع حداثة سنه ومن ثمَّ تعكس الصورة إعجاب الشاعر الشديد بشخصية الممدوح ، فتكرر لفظة السيف الدالة على البداوة بما فيها من معاني الحسم والقوة والبطش توحي أيضًا بسعة اطلاع ابن دراج وكثرت مدائحه .

(ب) التضاد:

وهو الجمع بين ضدين في الجملة ،وهو أكثر المحسنات عند شعراء الفكرة والسعي وراء الجديد والطريف فيها[12]. ومن أمثلة التضاد في مدائح ابن دراج القسطلي التي تجلت فيها البداوة قوله[13]:

كتائِبُ يَكْسُـــونَ الأَباطِحَ والرُّبى بِخَيْلٍ تَلِيـــدَاتِ الوَغَى وطـــرَيفِها

وتُسْمِعُ خِلْدَانَ الثَّرى من صَهِيلِها ويَخْرَسُ جِنَّانُ الفَـلا عن عَزِيفِـها

إِذَا أُرْسِلَتْ فِيهَا العُيُـونُ تَشَكَّلَتْ نواظِـــرُها فِي ســـيْرِها وَوُقُـوفِها

وقع التضاد في الأبيات بين المفردات (تليدات و طريفها) في البيت الأول(سيرها وقوفها) في البيت الثالث ،إذ يصف الشاعر في الأبيات كتائب الجيش الذين يكسون الأباطح والربى بخيولهم ، ويصف صهيل هذه الخيول في أثناء سيرها.

وقوله :[14]

ومِلْءَ عُيُونِ النَاظِرِينَ كتـــائِباً كَتَبْتَ بِهَا الآفاقَ سَطْراً إِلَى سَطْرِ

مُخَطَّطَةً بالخَيْلِ والأُسْـــدِ والحُلى ومُعْجَمَةً بالبَيْضِ والبِيضِ والسُّمْرِ

فَصَلَّيْتَ وَهْيَ النُّورُ فِي مَشْرِقِ العُلا وأَصْلَيْتَ وَهْيَ النَّارُ فِي مَغْرِبِ الكُفْرِ

وقع التضاد في هذه الأبيات ، بين المفردات (االبيض والسمر)،(مشرق و مغرب) ، وذلك في معرض مقابلة بين صورة الممدوح وكتائبه ، وكتائب العدو حيث صور كتائب الممدوح بالنور، في

مشرق العلا ، وكتائب العدو بالنار في مغرب الكفر، وذلك لانتصار كتائب العدو في مواجهة كتائب الممدوح.

(ج)الإيقاع:

يتمثل الإيقاع الخارجي في البحور الشعرية والوزن والروي،،وهذه العناصر هي التي تحدد الدلالات وتخرج الشعر في أسلوب مميز ، ففي قصائد الشاعر المدحية يوظف الأوزان الخليلية كبحر الطويل والبسيط والوافر، فقد استعمل الشاعر بحر الطويل في مدائحه، وهو بحر يستوعب ما لا تستوعبه البحور الأخرى من المعاني كما يمثل النفس الشعري الذي جسده ابن دراج القسطلي في مدائحه ومن مدائحه على بحر الطويل ، والتي تجلت فيها مظاهر البـــــــداوة قوله :[15]

تلاقَتْ عَلَيْهِ من تَميمٍ ويَعْرُبٍ شُموسٌ تَلالا فِي العُلا وبُدُورُ
منَ الحِمْيَرَيّينَ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ سحائِبُ تَهْمِي بالنَّدى وبُحُورُ
ذَوُو دُوَلِ المُلْكِ الَّذِي سَلَفَتْ بِهَا لَهُمْ أَعصُرٌ مَوْصُولَةٌ ودُهُورُ
لَهُمْ بَذَلَ الدهرُ الأَبيُّ قِيادَهُ وهُمْ سَكَّنُوا الأَيَّامَ وَهْيَ نَفُورُ

البيت في المدح ، يقدم الشاعر فيه صورة لقوم الممدوح ، ويصف بطولاتهم في الحروب وهذا من مظاهر البداوة في مدحه حيث أشار إلى قبيلتي (تميم ، ويعرب) الدالة أيضًا على البداوة فاستخدام ابن دراج للعنصر التاريخي يدل على عراقة أصل الممدوح وموسوعية الشاعر بأنساب العرب ، فلا غرابة في براعة الشاعر واستخدامه لإيقاع يتناسب مع الموضوع والقصيدة جاءت على بحر الطويل ،وتفعيلة البيت:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

جاءت تفعيلة (فـــعولن) على مدار القصيدة في صورتها الممكنة (فعـــولن) و(فعول) أما تفعيلة (مفاعيلن) ، فقد جاءت في كل من العروض والضرب مقبوضتين (مفاعلن) وقد استطاع الشاعر أن يوظف البحر في الحديث عن الممدوح ،وتمجيد بطولاته وبطولات قومه وهو مظهر من مظاهر البداوة . كما جاء أيضًا في مدح منذر ابن يحي قوله[16]:

بِفَتْحِ الفُتُوحِ وسَعْدِ السُّعُودِ وعِزِّ العزيزِ وحَمْدِ الحَمِيدِ
تَدَرَّعْتَ صَبْراً تَجَلَّى بِنَصْرٍ وأَوْفَيْتَ شُكْراً وَفى بالمَزِيدِ
فَمِنْ يَوْمِ عِيدٍ إِلَى يَوْمِ فَتْحٍ ومن يَوْمِ فَتْحٍ إِلَى يَوْمِ عِيدِ
وجُودٍ تَفَجَّر مِنْ نَارِ بَأْسٍ وبَأْسٍ تَسَعَّرَ مِنْ بَحْرِ جُودِ
بِطَوْلٍ يُعِيدُ شَبابَ الكَبِيرِ وهَوْلٍ يُشَيِّبُ رَأْسَ الوَلِيدِ

نجد الإيقاع السريع في القصيدة من خلال قافية الدال المسبوقة بالمد (الواو أو الياء) يلعب دورًا مهمًا في تناسب المفردات المنتقاة في مدح الممدوح وبراعة الشاعر في مدحه.

وحرف الروي هو الذي يبني عليه الشاعر قصيدته ولهذا يجب أن يحسن اختياره على النحو الذى يكون فيه سلسًا، حسن المخرج ، ويتناسب مع غرضه الشعري،ويؤدي المعنى الموافق لقول الشاعر . يقول الشاعر :[17]

أَمِيرٌ عَلَى غَـــوْلِ التَّنائِفِ مَـا لَهُ إذَا رِيـــعَ إلّا المَـــشْرِفيَّ وَزِيرُ

ولو بَصُرَتْ بِي والسُّرى جُلُّ عَـــزْمَتي وجَـرْسِي لِجِـــنَّانِ الفَلاةِ سَمِير

وأَعْتَسِفُ المَوْمَاةَ فِي غَسْقِ الـــدُّجى وللأُسْدِ فِي غِـــيلِ الغِـــياضِ زَئِيرُ

الروي في هذه الأبيات هو الراء ، كما تكرر في حشـــو الأبيات ، وقد أسهم حرف الراء في عرض صورة رحلته للممدوح ، حيث يصور مالاقاه في رحلته ، في الصحراء المترامية الأطراف وفي ظلمات ليل دامس ،وذلك كله من أجل الوصول للممدوح . وقد أسهم حرف الراء في تصوير هذه الرحلة ، فالشدة في حرف الراء أسهمت في إطلاق الصوت ، دون قيود،إضافة إلى صفة الانطلاق ، فالراء من الأصوات المجهورة ، يلقي في النفس شعوراً بالحماسة والبطولة .

كما قام الشاعر باختيار ألفاظ ذات إيقاع موسيقي واحد (أَمِيرٌ – وَزِيرُ – سَمِيرُ – زَئِيرُ)،مما يخلق انسجاماً بين الألفاظ ،والغرض الذي يؤديه في نفس المتلقي ويبعث بين الحين والآخر شحنات موسيقية ، تحمل في ثناياها دلالات ومقاصد يريد الشاعر إبلاغها للمتلقي ،فإذا كان الغرض يستوجب القوة والصلابة ، فإن على الشاعر إتباع جرس موسيقي ، يعبر عن هذا الغرض فيشعر به المتلقي ، فيتأكد المعنى،وتطرب النفس [18]

ثانياً تصوير البادية في مدائح ابن دراج:

(١) تصوير الجانب المادي للبادية :

الخيل :

إن الخيل مبعث فخر البدوي ، فهو أنيس البدو في تنقلاتهم ، وهو المطية في الصـــيد فالفرس" تختبيء في لاوعي النص الشعري ، مثالاً أعلى للوفاء والجمال والأناقة والرشاقة فاقترنت صورة الفرس بصورة المرأة الحسناء . " [19] وقد ورد لفظ الخيل في مواضع كثيرة في مدائح ابن دراج ، من ذلك قوله[20]:

حَيْثُ تلاقَتْ نواصي الخَيلِ واعتَنَقَتْ صدورُ غَيظٍ يذوبُ الصَّخْرُ من وَقَدِهْ

سَرى لأَمـــــرِكَ لا لَيـلٌ بواجِدِه عَلَى الحَشايا ولا نَجـــمٌ بِمفتـقِدِهْ

مُجهّزاً فِي سبيلِ اللهِ جَيشَ هُـدى السَّمعُ والطَّوْعُ للمــنصورِ من عُدَدِهْ

ورد لفظ (الخيل) في معرض الحديث عن الحرب ، في حالة من غليان الصدور، الذي ذوب الصخر من شدة حرارتها ، وكانت الخيل مطية الفرسان الذين جاءوا لأمر الممدوح ، وكان الجيش مجهزًا ، وذلك ليكون طوع أمره وقوله :[21]

وفي صَـــهَوَاتِ الخُيُولِ الرِّجَالَ ومِـــــنْ أدوَاتِ الرِّجَالِ السِّلاحا

حيث يربط بين الخيول والسلاح وبين الرجال، فالخيول مطيتهم ، والسلاح أداتهم للقتال.

وقوله :[22]

لَبِسَتْ ثيابَ الأَمنِ حينَ تَمَنَّعَتْ آفاقُـــها وتـــباعَدَتْ أَقطـــارُها

وتسربَلَتْ حُلَلَ الثُّلُوجِ جِبالُـــها واسْتَفْرَغَتْ مـــدَّ الحَيا أَنـــهارُها

والخيلُ والأَبطالُ تجهد خَلْفَـــها أَلّا يَشِـــطَّ عَلَى الخليـــلِ مَـــزارُها

هذه الأبيات تحمل الطابع البدوي ، حيث مزج الشاعر بين الطبيعة والشجاعة والكرم ووصف الخيل ، فالأمن يسود المكان والجبال مغطاة بالثلوج والأبطال يمتطون الخيل ، وهكذا جاء ذكر الخيل مقترناً بشجاعة الفرسان الأبطال.

البادية (الصحراء) :

تعد البيئة أهم محرك للبادية والطبيعة القاسية أهم عوامل ظواهرها ، فقد وصفها ابن دراج القسطلي في شعره ،كما عدد مناقبها وعناصرها ،مثبتاً بذلك أصالة الممدوح وانتمائه العربي والبدوي الأصيل .ومن صور البادية الترحال ، فقد صور الشاعر رحلته إلى الممدوح عبر الصحراء القاحلة بعد حوار دار بينه وبين زوجته :[23]

دَعِيني أَرِدْ ماءَ المفاوِزِ آجِـــناً إِلَى حَيْـــثُ ماءُ المكرُمَاتِ نمـيرُ

وأَخْتَـلِسِ الأَيَّامَ خُلْـسَةَ فاتِكٍ إِلَى حَيْـــثُ لي مِنْ غَدْرِهِنَّ خَـفِيرُ

فإِنَّ خطيراتِ المـهالِكِ ضُـمَّنٌ لراكِبـــــها أَنَّ الجـــزاءَ خطيرُ

وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جوانِحُ من ذُعْـــرِ الفـراقِ تطيرُ

لئِنْ وَدَّعَتْ مني غَـــيوراً فإِنَّنِي عَلَى عَزْمَتـــي من شَجْـوِها لَغَيُورُ

يتحدث الشاعر إلى زوجته ، في هذه الأبيات ، ملتمساً منها تركه للرحيل بقـــــوله : (دعيني) وقد عبر عن الرحيل بقوله :(أَرِدْ ماءَ المفاوِزِ آجِـــناً)، فالرحيل مر وصعب فهو رحيل من أجل الحياة الكريمة التي يطمح إليها ، وقد عبر الشاعر عن الصحراء بلفظ (المفاوز) من باب التفاؤل، فالذي يخرج منها حياً ، يعد فائزاً وذلك مثل" قولهم للملدوغ سليم وإنما السليم المعافى . "[24]

إن غاية الشاعر من هذا الرحيل المر الراحة والعزة والغنى والحظوة ، فالشاعر يعيش حالة من الصراع النفسي، بين وجوده مع زوجته وطفله وبين رحلته للممـــــدوح التي سيحقق من ورائها المكاسب المادية ، ثم يقوم الشاعر بوصف رحلته ، في سياق يغلب عليه طابع البداوة بقوله :

وَلو شاهَدَتْنِي والصَّواخِدُ تَلْتَـظِي عَلَيَّ ورقـراقُ الســـــراب يَمُورُ

أُسَلِّطُ حَرَّ الهاجِراتِ إذَا سَــطَا عَـلَى حُرِّ وَجْــهِي والأَصيلُ هَجِيرُ
وأَسْتَنْشِقُ النَّكْــباءَ وَهيَ بَوارِحٌ وأَسْتَوْطِئُ الرَّمْــضاءَ وَهْيَ تَفُورُ
ولِلْمَوْتِ فِي عيشِ الجبانِ تلوُّنٌ وللذُّعْرِ فِي سَمْــعِ الجريءِ صَفيرُ

حيث يصور مخاطر السير في الصحراء نهاراً وليلاً ، ففي النهار يعاني من شدة الحر والسراب والقيظ ومن المعلوم من كتب السير والأعلام بصحراء البادية والسير فيها والشمس المحرقة بأطوارها المتعددة والطريق المفتوحة بدون دليل ولا علامة وشدة العطش والظمأ الذى تعلم من الشاعر الصبر ومواصلة الراحلة بكل مخاطرها تضاهيها المكافأت المادية للممدوح فعبر عن ذلك بقوله (وأستنشق النكباء) و (وأستوطئ الرمضاء) فالشاعر يريد أن ينعم بالجوار من زوجته ولكن يجد أمامه الصحراء التى تفور من شدة الحرارة عوضًا عن الزوجة من أجل التكسب، وفي الليل يشعر بالمخاطر التي توشك أن تهلكه والرعب الذي يتملكه ، ويقر الشاعر أنه ليس من فئة الجبناء في الخوف من الموت في سبيل الممدوح .وهكذا أراد الشاعر أن يبرهن على مدى حبه للممدوح .في سياق ، تجلت فيه مظاهر البداوة .

كما عبر عن الصحراء بلفظ البيد في قوله [25]:

أَسَدٌ حَطمْتَ سِلاحَهُ فــتركْتَهُ بالبــــيدِ لا ظَــفَرٌ ولا أَظــــفارُ

يصور الشاعر معركة دارت في الصحراء ،بين الممدوح والعدو ،فقد أراد أن يثبت أن ممدوحه أقوى من العدو وأشد منه فتكاً ، فشبه عدوه بالأسد ليثبت شجاعة عدوه؛فرغم شجاعة العدو وقوته ،إلا أنه انتصر عليه ، وتركه في الصحراء مهزوماً خاسراً.

وعبر عن الصحراء بالبيداء في قوله:[26]

فكَمْ صَبّــحَتْكَ بِفَتْــحٍ قَرِيبٍ سُرى لَيــلَةٍ ذَاتِ صُــــبْحٍ بَعِـيدِ
وكَمْ حَمَلــــتْ منكَ بَيْدَاءُ قَفْرٍ إِلَى الكُــفْرِ مــــن يَوْمِ حَيْنٍ مُبِـيدِ

وردت البادية (بيداء قفر) ، في وصف شجاعة الممدوح وكرمه وشهامته ونصرته .

وصف الليل :

يرتبط الليل بالحزن والهموم عند البدوي ، وكذلك ابن دراج القسطلي ، ليله مظلم ، ولا يزيل ظلمته إلا الممدوح ، وذلك بقوله:[27]

أَشُجُّ بِهَا والليلُ مُرْخٍ سُدُولَه سَبَارِيتَ أَرضٍ لا يُرَاعُ قطاها
أُسَائِلُ عن مجهولِها أَنْجُمَ الهُدى بِعَيْنٍ كَأَنَّ الفرقَدَيْنِ قذاها
وَأُحْيِي نُفُوسَ الرَّكْبِ من مِيتَةِ الكَرى وَقَدْعَطَفَ الليلُ التَّمامُ طُلاها

بِذِكْرِ أَيادِي العامِرِيِّ الَّتِي طَمَتْ عَلَى نَأْيِ آفاقِ البِلادِ مُنَاها

فقد شبه الشاعر الممدوح بالقمر؛الذي أشرق في الليل ، وبضوء البرق اللامع الذي يزيل ظلام الليل ، وطغت ثقافة الشاعر واطلعه على الشعر الجاهلي من خلال قوله (والليل مرخ سدوله) كما وردت اللفظة لدى امرئ القيس في معلقته .

(٢) تصوير الجانب المعنوي للبادية:

قام الشاعر ابن دراج القسطلي بامتداح القيم البدوية التي تنشيء الإنسان البدوي نشأة سليمة ؛ فالبيئة البدوية وقسوتها، فرضت على الإنسان البدوي مجموعة من القيم التي وجب عليه أن يتحلى بها ، ليستطيع مجابهة قسوة الطبيعة وصعوبة الحياة في البادية. ومن هذه الصفات التباهي بالنسب الرفيع الشجاعة والفروسية ومواجهة مخاطر الحروب.

(أ) النسب الرفيع :

التباهي بالنسب الرفيع ، من الصفات البدوية التي وصف بها ابن دراج القسطلي ممدوحه المنصور؛ وذلك في قوله :[28]

فيَهنـــــيك يَا منصورُ مبدأُ أَنْـــــعُمٍ عَـــوائدُه صـــنعٌ لديكَ جَمـيلُ
وفرعان مـــن دوح الثناء نمتهما من المجد فِي التُّرْبِ الزَّكِيِّ أُصـولُ
مليكانِ عَـمَّ السّلمَ والحربَ منهما غِنىً وَغَنـــاءٌ مُـــبْرَمٌ وَسحيل
فَوُفّيتَ أَجـــرَ الصابرين ولا عَدَا مساعِيكَ فَـــوزٌ عـاجلٌ وَقَبُول

يمدح الشاعر المنصور بالنسب الكريم ،فيهنئه، عـــلى عوائده الجمـــيلة،فقـد ورث المجد كابراً عن كابر، فالشاعر يرسم صورة ممدوحه يوم العيد ، فهو العابد التقي ، الصابر الصائم المحتسب أجره عند الله – عز وجل –،وهو لا ينتظر الثواب العاجل المقبول إلا من الله تعالى.

ب–الشجاعة :

إن الشجاعة من القيم الأصيلة ، في البيئة البدوية؛ لما لهذه البيئة من قساوة وصعوبة العيش فيها ،مما يحتم على أبنائها أن يكونوا قلاعاً تحميها ، في السلم والحرب ،وقد ارتبطت الشجاعة العربية بأمور عدة تحتم على الفارس أن يتحلى بها ، لتكتمل عنده صورة شجاعة البدوي وترتبط الشجاعة بالفروسية والحروب وأهوالها ، والعقلية العربية تفرض عليه أن يخرج – دائماً – من كل حرب يخوضها منتصراً ،ومن صور الشجاعة الفروسية والحروب .

جـ–الفروسية :

لقد تغنى الشاعر ابن دراج القسطلي بفروسية الممدوح بقوله :[29]

يا قائِدَ الخيلِ العـتاقِ كَأَنَّما عَزَماتُهُ أَرماحُـــها وشِـــفارُها
ليثٌ يُخاطِرُ فِي المَكَرِّ بنفسِهِ هِمَمٌ عظيمٌ فِي العـــلا أَخطـــارُها

بدأ الشاعر بالنداء ؛ لكي يلفت انتباه المتلقي ،وقد جاء المنادى (قائد الخيل) منادى معرف بالإضافة، ووصف الخيل بالعتاق ؛أي الأصيلة الكريمة ، والخيل الأصيلة لايركبها إلا فارس أصيل ، وهذا الفارس الأصيل هو الذي رفع لواء الجهاد في سبيل الله ، وهو الليث عند المخاطر الذي يلقي بنفسه في المخاطر ، والذي يتصف بعلو الهمة وعدم الخـــوف.وقوله :[30]

وأَشجـــعَ من حملته الخيول وأَهيَبَ من رَهِـــبَتْهُ الأُســودُ
وأَصمـــدَ من جَرَّبَتْهُ السيوفُ وأَجـــملَ من ظَلَّلَتْهُ البُنـُودُ
ومَنْ هـــو للمُلْكِ سورٌ منيعٌ ومـــن هو للدينِ ركنٌ مَشـيدُ

المهيب المجرب والأجمل ، والذي يرفع رايات النصر ؛ وقد استعان الشاعر في تصوير الممدوح بأفعل التفضيل (أشجع- أهيب- أصمد- أجمل) ، كما وضع الممدوح في أعلى الرتب ، كما صوره بالسور المنيع للملك ، والركن المشيد للدين.

د- الحروب :

لقد تغنى الشاعر بالحروب التي يخوضها الممدوح وانتصاراته التي يحققها ،كما تغنى بسلاحه وجيشه القوي ، وخيله التي كانت دائماً متأهبة للحروب ، لأي خطر خارجي ، قد يهدد أمنهم ، ومن ذلك مدحه للمنصور بن عامر ، لخوضه الحروب بقوله:[31]

لَكَ اللهُ بِالنَّـصْرِ العزيزِ كَفيلُ أَجَـــدَّ مُقـامٌ أَم أَجـــدَّ رَحيلُ
هُوَ الفتـــحُ أَمَّا يَومُهُ فَمُعَجَّلٌ إليكَ وَأَمَّا صُـــنعُهُ فَـــجزِيلُ
وآياتُ نصـرٍ مَـا تزالُ وَلَمْ تزَلْ بهنَّ عماياتُ الضَّـــلالِ تَزولُ
سيوفٌ تنيرُ الحقَّ أَنَّى انْتَضَيْتَها وخيلٌ يجولُ النـصرُ حَيْثُ تَجولُ

وقوله [32] :

أَوطَـــأْتَ أَرضَ المشركينَ كتائِباً فِيـــهَا وَشيكُ فَنائها ودَمَـــارُها
وتركتَ أَرضَ لِـــيُونَ وَهْيَ كَأَنَّها لَمْ تَغْنَ بالأَمسِ القريبِ دِيـــارُها
مرفوعةً لَكَ فِي العُلا أَعـــلامُـها لما غَـــدَتْ بك عافِـــياً آثارُها
والخيلُ والأَبطالُ تجـــهد خَلْفَها أَلّا يَشِـطَّ عَلَى الخلـــيلِ مـزارُها
حَتَّى عَبَرْنَ خلـــيجَ دُويْرُ كَأَنَّها سُفُنٌ ترامى بالحـــتوفِ بِحارُها

صور الشاعر الممدوح وجيشه المنتصر على الأعداء ،في الواقعة الحربية المعروفة بغزوة مملكة ليون وتدميرها ،ودخول الممدوح بجيوشه وخيله أرض المشركين، واستسلامهم.

المبحث الثاني تجليات الحضارة في مدائح ابن دراج القسطلي

مفهوم الحضارة:

معنى الحضارة في اللغة: من الفعل حضر ، وهي عكس البداوة ؛ ففي الحضر يمارس الناس الزراعة وغيرها من النشاطات الحضرية ويعيشون في المدن فالحضارة تعني الاستقرا. [33]

مفهوم الحضارة في الاصطلاح : مجموعة المظاهر العلمية ،والأدبية، والفنية والاجتماعية الموجودة غي المجتمع ، وتعتمد الحضارات الإنسانية المختلفة على بعـــــضها فكل حضارة تأتي متممة للحضارة التي سبقتها ، وتسهم هذه الحضارات في البناء الإنساني للعالم بأكمله"[34]

أولاً البناء الفني للحضارة في مدائح ابن دراج:

(١) اللغة : من مظاهر الحضارة في مدائح ابن دراج لغة الشاعر ؛ التي امتازت باللين والسهولة والتبسط في القول ،والابتعاد عن الوحشي الغريب ،وقد استعمل ابن دراج ألفاظ

الحاضرة الرقيقة البسيطة في تسجيل الكرم والبطولة للممدوح ،ومـــن أمثلة ذلك قوله :[35]

أَيَادِيكَ رَدَّتْ يـــدِي فِي يَدَيْكا وبِرُّكَ قادَ عِـــناني إلـــيْكا
كفَـوْدِكَ للحربِ خَـــيْل تَهُزُّ عَوَاليَـــها من كِـــلا جانِبَيْكا
أشِيمُ نجوماً هَـدَتْني إليـــكَ تَـــلوحُ مَطَالِعُـــها مِنْ يَدَيْكا
يدورُ بِهَـــا فَلَكٌ من عُلاكَ فمِـــنْ مَشْرِقَيْكَ إلى مـَغْرِبَيكا

وعلى الرغم من أن سمات البداوة في الأبيات ، مثل الحديث عن شجاعةالممدوح وبطولاته وورود لفظ من ألفاظ البادية (خيلا) ، فإن الحاضرة قد هـــذبت ذوقهفي اختيار الألفاظ ، والابتعاد عن الحوشي من القول ، حتى أننا لم نجد في الأبيات لفظًا غريبًا أو صعبًا ،أو يحتاج لمعرفته إلى الرجوع إلى المعاجم .

التكرار :

إن تكرار الأصوات من التقنيات الصوتية والفنون البديعية ، التي تبرز سمات الحضارة في شعر ابن دراج قوله :[36]

سلامٌ عَلَى شرخ الشباب مُـــرَدَّدٌ وآهاً لوصـــــل الغانيـــــات وآها
ويا لديار اللـــــهو أَقوت رُسُومُـهَا وَمَحَّتْ مغانـــــيها وَصَمَّ صَـدَاها
تهادي المها الوحشيّ فِي عَرَصَاتِها يذكِّرُنـيه آنســـات مهـــــــاها
دعوتُ لَهَا سُقيَا الحيا ودعا الهـوى وَبَرْحُ الهـــوى دمعِي لَهَا فسقاها

هذه الأبيات جاءت في مقدمة مدحه للمنصور، وقد كرر الشاعر حروف المد والهاء بصورة واسعة ، مما أضفى على النص إيقاعاً موسيقياً متناغماً يوحي بالبؤس والتفجع، فكثرة حروف المد ، وخاصة الألف أدى إلى إبطاء الإيقاع الموسيقي للنص، وكأنها آهات طويلة توحي بثقل الزمن الذي يقاسيه الشاعر ويؤازها حرف الهاء المتكرر ، في حشو الأبيات والعروض والضرب التي جاءت مفتوحة لتعطي صوت الهاء مدى أوسع من الإطلاق والحرية . كما نلمح وفرة لصوتي (السين والصاد) وهما من الأصوات المهموسة والصفير المنبعث من هذين الصوتين يسهم –أيضاً– في تفريغ شحنات الأسى والحزن ؛اللذين امتلأت بهما نفس الشاعر حزناً على شبابه الذي ولى، وعند قراءة هذه الأبيات بعين ثاقبة

تفتح أمامنا الحديث عن براعة الشاعر في استلهام التراث فمن خلال شعر ابن دراج نجد اهتمامه اللافت للنظر بهذه النقطة سواء استلهم التراث بالألفاظ أو الأشخاص أو الأحداث مما يضفى على شعره نوعًا من الامتداد الزمني والإنساني، فاستدعائه لهذه الكلمات في النص(تهادي المها الوحشيّ فِي عَرَصَاتِها) هذه الألفاظ البدوية لم يذكرها الشاعر هبًا منثورا ، ولكنها توحي بسعة اطلاع الشاعر على تراث الأمم وشغفه في تسجيل كلمتهم لتظل خالدة في نفوس الشعراء ، وكما أنها تخدم المعني، ويوظفها الشاعر بطريقته الخاصة .

ومن تكرار الألفاظ ما جاء لتأكيد أهمية مواقف الممدوح وبطولاته، ونضاله للدفاع عن الإسلام ، وذلك في مثل قوله:[37]

سِرْ سارَ صُنْعُ اللهِ حَيْثُ تسيرُ ... قُــدُماً وساعَدَ عَزْمَكَ المقدورُ
ووَصَلْتَ موصولاً بِبُغْيَتِكَ المُنى ... ومُيَـسَّراً لمــرُادِكَ التَّيــْسِير
وأَعادَ عاداتٍ جَرَتْ لَكَ بالمُنى ... ربٌّ عَلَى أَضــعافِهِنَّ قــدير
حَكَمَتْ لَكَ الأَقــدارُ أَنَّكَ باهِرٌ ... مُلْكَ المــلوكِ وأَنَّهُ مــبْهُورُ

يمدح الشاعر ابن دراج القسطلي المنصور بألفاظ سهلة رقيقة ، واضــحة لا غرابة فيها والأبيات على بحر الكامل ، وإيقاع البحر السريع يوحي بشدة الحركة وتعجيل الممدوح ، بإجابة داعي الجهاد ، وإسراعه إلى ديار الروم ، وتأتي سرعة الحركة ، من كثرة الزحافات التي نلمحها في الأبيات ، ومن تكرار بعض الكلمات (سِرْ – سار– تسيرُ) (وَصَلْتَ – موصولاً)، (أَعادَ – عاداتٍ)(باهِرٌ–مَبْهُورُ) (مُلْكَ – الملوكِ (وهذا التكرار يوحي بعظمة منجزات الممدوح ويسهم في توضيح المعنى المراد هذا بالإضافة إلى النغمة الإيقاعية التي تميل إليها الأسماع وجاء ذلك كله ، في لغة سهلة رقيقة ، معبرة عن المعنى . ولا نلمح في الأبيات لفظاً وحشياً أو غريباً، وهذه سمة حضارية في مدائح ابن دراج القسطلي.

(٢) الإيقاع:

من البحور التي نظم عليها الشاعر مدائحه (الرمل والخفيف) ، وهما من البحور التي لم تكن لها الصدارة في شعر البادية ، وقد جاء على مجزوء الرمل قوله في مدح المنصور :[38]

دَأْبُكَ الهَجْرُ وَذَابِي ... فيكَ إِدمانُ التَّصــابِي
أَيُّهَا المُغْرَى بقَتْلِي ... بِكَ أَصْبَحْتُ لِمَـا بِي
لا ومَنْ آوى اغتِرابِي ... وشفى حَرَّ مُصــابي

أما بحر الخفيف، فقد كان صالحًا لسرد صفات الممدوح وشجاعته ، وسمي خفيفًا لخفته في الذوق والتقطيع .[39] ومما جاء على بحر الخفيف،في مدائح ابن دراج القسطلي قوله:[40]

بَشِّرِ الخَيْلَ يومَ كَــرِّ الطِّرادِ وظُبى الهندِ عند حَرِّ الجِــلادِ
وسماءَ العُلى بنَجْمِ المسـاع وريـاضَ المنى بصَوْبِ الغَوادِي
ثُمَّ وافِ القصورَ من مُلْكِ بُصْرى بـالمَشِيدات من ذُرى شَــدَّادِ

ثانياً تصوير الحضارة في مدائح ابن دراج القسطلي :

(أ) وصف الخمر :

وقد برزت هذه الظاهرة في قصيدة مدح فيها المنصور بن أبي عامر ، وقد بدأها بالحديث عن الخمر، وفي هذه القصيدة ، يمزج الشاعر بين البداوة والحضارة ، فهو يقف على الأطلال جرياً وراء سنن البداوة، لكن الأطلال عند ابن دراج القسطلي تختلف عن الأطلال في الشعر البدوي فلم تكن الوقوف على الديار التي غادرها أهلها وإنما هي مرابع صباه التي لم يقدر له أن يحيا فيها طويلاً ، وهذا المعنى استقاه ابن دراج من المحدثين الذين ثاروا على التمسك بالمقدمة التقليدية ، ثم ينتقل إلى معانيه المبتكرة ، ويستقصي ملامح ديار لهوه . فقد آثر الشاعر استيقاف أصحابه في هذه الديار لاحتساء الخمر ، والانتشاء من سحرها بدلاً من استقافهم لذرف العبرات في قوله: (41)

وقد أَستقيد الحُــورَ فِيهَا بِلِـمَّةٍ تَبَارَى نفوسُ العِينِ نحـو فِدَاهَا
وأُصبِحُها الشّــرْبَ الكرامَ سُلافَةً أَهانت لَـــهَا أَموالَها وَنُهَاها
مَيْتاً كَأَنَّ النجــمَ حـينَ تَشُجُّها تقحَّمَ كَأْسٌ كَأْسَهَا فَــعَلاهَا
بأَيدي سُقَاةٍ مثل قُضبانِ فِضّــةٍ جَلَت أحمر الياقوت فَهْوَ جَنَاهَا
وتُزْهى بِسحرٍ من أَحـاديثَ بيننا كَأَنَّ أَســيرَيْ بابلٍ نَفــثَاهَ

استقى ابن دراج مقدمة الخمر من أبي نواس ، ولاقت هذه المقدمة رواجاً في الأندلس لما فيها من الطبيعة الفاتنة الساحرة التي تستهوي الشعراء بمفاتنها وتدعو إلى احتساء الخمر في رحابها . وقد جمع ابن دراج في هذه المقدمة بين البداوة والحضارة حيث لم يبدأ مدحته بذكر الخمر ،وإنما جعلها لازمة من لوازم الوقوف على أطلال لهوه ، حيث نجد الشاعر في هذه الأبيات يستوقف أصحابه في مراتع شبابه المندثر للانتشاء بالخمر المعتقة ، ثم يصف السقاة الذين يقدمون الخمر ، ويتذكر الأحاديث التي دارت بينه وبين أصحابه في أثناء احتساء الخمر.

(ب)الألفاظ الدينية:

وردت الألفاظ الدينية كأسماء الله الحسنى أو تضمين لألفاظ القرآن الكــريم في مثل قوله (42)

يا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي عَــــزَمَاتهُ فِي الدِّينِ أَعظَـــمُ أَنْعُمِ الوَهَّابِ
وَصَلَ الإلهُ لديكَ عُمْــراً يَقْتَضِي أَمَدَ السنينَ وَمــــدَّةَ الأحقـابِ

يذكر الشاعر أن ما يقدمه ممدوحه للدين أعظم ما أنعمه الوهاب، وأن الله بارك في عمره فقد ذكر اسم من أسماء الله الحسنى (الوهاب) ، كما ورد لفظ (الإله).

ومن الأمثلة الدالة على الحضارة الممزوجة بالألفاظ الدينية قوله:

نجومَ الصِّبا أَيْنَ تِلْكَ النجومُ نَسِيمَ الصَّبا أَيْنَ ذَاكَ النَّسيمُ
كواكِبُ تصغي إليها السُّعودُ كواعِبُ تَصْبُو إليها الحُلُومُ
وإذ لا صباحِي رقيبٌ عَتيدٌ ولا ليلُ وصلِي ظلامٌ بهيمُ
وكيفَ وشمْسُ الضُّحى لي أَليفٌ وأَنَّى وبدرُ الدُّجى لي نديمُ

من خلال الألفاظ (النجوم – الكواكب – الشمس – البدر) نجد أن النص الشعري لابن دراج يمتص مضمون الآيات والألفاظ القرآنية من سورة يوسف (إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ) سورة يوسف (٤).مع اختلاف توظيف الشاعر وتحميل الكلمات السالفة الذكر لأحاسيسه فتتحول الشمس إلى أليف يعاشره والبدر إلى نديم ساهر الليل معه والكواكب إلى رجل آمن تسهر على آمنه وحراسته ومن ثم تحضر عناصر الطبيعة لتكون رمزًا وإشارة وتحويل مسار للحضارة .

وقوله :[43]

واهدِمِ الكُـفْرَ وغَـيّر مُلْكَـهُ وابْنِ أَعلامَ الهُـدى عِزّاً وشـدْ
والبَسِ الصبرَ إِلَى أَرْضِ العِدى وقُـدِ النصرَ إِلَيْهِ واسْـتَمِدْ
واخسِفِ الشِّرْكَ بعـزمٍ يُنْتَضى سَيْفُهُ عـن قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ

يمتدح الشاعر المنصور بأن الغاية من جهاده ، هدم دعائم الشرك ؛ الذيشادها الروم في شمال الأندلس ، ويضمن أبياته قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ) للدلالة على التوحيد ؛ الذي يذود المنصور عن حماه ، وقد اقتبس ذلك من قوله تعالى :{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد}(الإخلاص ١)

وقوله:[44]

بفَتْحِ الفُتُـوحِ وسَعْدِ السُّعُودِ وعِزِّ العـزيزِ وحَـمْدِ الحَمِيدِ
تَدَرَّعْتَ صَـبْراً تَجَلَّى بِنَـصْرٍ وأَوْفَيْتَ شُكْـراً وَفى بالمـزِيدِ
فَمِـنْ يَوْمِ عِيدٍ إِلَى يَوْمِ فَتْحٍ ومن يَوْمِ فَتْـحٍ إِلَى يَوْمِ عِيدِ

يورد الشاعر في البيت الأول من أسماء الله الحسنى (العزيز) و(الحميد) في معرض مدح المنصور الذي حقق انتصارات كثيرة .

وقوله :[45]

فللإشـراكِ كِلْتَا الخِـزْيَتَيْن وللإسـلام إحدى الحُسنييْنِ

يذكر الشاعر في معرض مدحه للمنصور أن عاقبة كتائب المشركين وخيمة وهذا ما أشار إليه بقوله: (كِلْتَا الخِـزْيَتَيْن)،أي شر الهزيمة ونار جهنم خالدين فيها أما كتائب المسلمين فقد حظيت

بإحدى الحسنيين، وهذا ما أشار إليه بقوله:(وللإسلام إحدى الحُسنييْنِ) أي النصر والشهادة،وقد اقتبس ذلك من قوله تعالى:{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ}(التوبة ٥٢)

(ب) ذكر المدن العربية :

ومن سمات تصوير الحضارة الحديث عن المدن العربية التي أصبحت محطات تأثير وتأثر عند العرب ومن جاورهم من الأمم والبلدان الأجنبية ومن ذلك قول ابن دراج القسطلي :[46]

واجْنَحْ لِقُرْطُبَةٍ فَعانِقْ تُرْبَـــها عَنِّي بِمِـــثْلِ جَـوانِحي وتَرَائِـبي
حَيْثُ اسْتَكانَتْ للعَفاءِ مــنازلي وَهَوَتْ بأَفـــلاذِ الفـؤادِ نَجَـائِبي
ذُلُلاً تَعَـــسَّفْنَ الدُّجى بِأَذِلّـَةٍ ولواغِبـــاً جُبْنَ الفَــلا بِلـوَاغِبِ
وكواكِبٌ ناءَتْ بِقُرْبَتِـــها النَّوى فَقَضَتْ مـــدامِعُهَا بِنَوءِ الغـارِبِ
من كُـــلِّ مَفْجُوعٍ بتَرْحَةِ راحِلٍ لَمْ يُسْلِهِ طَمَـــعٌ بفَـــرْحَةِ آيبِ

يستهل الشاعر في هذه القصيدة التي يمتدح فيها المنصور منذر بن يحيى التجيبي الحديث عن قرطبة العامرية التي استحال جمالها خراباً ، وأمانها خوفاً، وقد ظلت حية في ذاكرة الشاعر تنمو داخله وتعيش معه في عهد الفتنة بعد أن اقترن اسمها بالأمجاد العامرية.

ويذكر العراق بقوله :[47]

كـوَاكِـبُ إلّا أنَّ أفـلاكَ سَيْـــرها زمـامٌ ورَحْـلٌ أَوْ شِـرَاعٌ وسُكَّلن
فَإِنْ غَرَّبَتْ أرض المغاربِ مَوئِلي وأَنْكَرَنِـي فِيـهَا خَليطٌ وخِلّان
فكَمْ رَحَّبَتْ أَرْضُ العِراقِ بمقدمي وأَجْزَلَتِ البُشْرى عَليَّ خُراسان

(د) ذكر الألفاظ والمدن الأعجمية :

كما نجد في مدائح ابن دراج من سمات الحضارة وجود ألفاظ أعجمية لأسماء الأعلام والأماكن الأعجمية ؛ ومن أمثلة ذلك قوله: [48]

وَقـــدْ تَيَمَّمَ شَنْجٌ منكَ عائِـدَةً تُجِـــيرُهُ من سيوفِ الكَرْبِ والوَهَلِ
وقـــادَ نحوَكَ والتَّوفِيقُ يَقـْدُمُهُ جيشاً من الذُّلِّ مِلْءَ السهل والجبلِ
مستعْطِفاً لحـــياةٍ جَلَّ مَطْلَبُـها عن مُبْلِغِ الكُتْبِ أَوْ مُسْتَعْطِفِ الرُّسُلِ
مستخذياً لسيوفِ النصرِ حين أَبَتْ من دينِ طـــاعَتَهِ قـولاً بلا عَمَلِ

يذكر الشاعر في معرض مدح المنصور أن (شانجة بن غرسيه) ملك قشتالة جاء ليعلن الولاء والطاعة ،وطلب العفو والمغفرة من للملك المنصور وذلك إمعاناً في رصد مشاهد الذل والخيبة التي اعتصرت قلوب العدو .

ويذكر مدن الروم الأعجمية التي وقعت في أيدي المنصـــــــور مثل مــدينة (ليون) في قوله : (49)

وتركتَ أَرضَ لِيُونَ وَهْيَ كَأَنّــهَا لَمْ تَغْنَ بالأَمــسِ القــريبِ دِيارُها
مرفوعةً لَكَ فِي العُلا أَعلامُــها لما غَــــدَتْ بك عافِــياً آثارُها
شِيَعٌ حواها حَدُّ سيفِكَ عنــوةً أَضحتْ وعُقْبى الانــتقامِ قُصــارُها

يذكر الشاعر مدينة ليون المدينة الرومية التي كانت تتمتع ببعض الأمن لأنها بعيدة عن ديار الأندلس وقبضة أميرها المنصور وزادها منعة أنها محاطة بالثلوج والأنهار حتى أصبح الوصول إليها ضرباً من الاستحالة والعبث ، ولكـــن استطاع المنصور أن يغزوها ويقهر الروم باحتلالها.

ويذكر (شنتياقة) و(الروم)،و(الحبش)،(الإفرنج) و(إيلياء) في قوله :[50]

بِشَنْتِياقَةَ لمـــا أَن دَلَفْتَ لَــهُ بالبِيضِ كالبدرِ يَسْرِي فِي سَنا شُــهُبِه
حَتَّى فَصَمْتَ عُرى دينِ الضلالَةِ راسِ القــواعِدِ ممنوعِ الحِمى أَشِبِه
عمودُ شِركِهِمُ السَّامِي ذوائِبُــهُ والرُّومُ والحُبْشُ والأَفرنْجُ من طُنُــبِه
وإِيلياءُ الَّتِي كانَتْ أَلِيَّـــة ذِي جَهْدٍ من الشِّـرْكِ خاشِي الإِثْمِ مُرْتَقِبِه

يهنيء الشاعر المنصور الذي توغل في بلاد الروم حتى فتح شَنْتِياقَةَ وإِيلياءُ بعد صراع طويل مع جيوش الروم انتهى بهزيمتهم .

ثالثاً بناء القصيدة وسمات الحضارة في شعر ابن دراج:

لم تعد القصيدة العربية المكتملة في بنائها القديم التقليدي المتوارث من مقدمة طللية ونسيب، ينطلق منه الشاعر إلى رحلة عبر الصحراء ومفاوز الخوف والأخطار ذلك أن حياة المدينة ومظاهر الاستقرار كانت تهدد هذا التقليد بسبب الابتعاد عن حياة الصحراء ومظاهر البداوة فأصبح الأمر يهدد البناء التقليدي للقصيدة من حيث المقدمة الطللية والوقوف على الأطلال ، بل أصبح الدخول إلى الموضوع مباشرة هو الشيء البارز في أشعار شعراء المدن ، تدفعهم قي ذلك دوافع شتى [51]، وذلك محاولة لإخضاع الهيكل الفني للقصيدة العربية لتجاربهم الخاصة ، بدوافعها المختلفة وتطويعها لاستيعابها.[52]

ونجد ذلك في شعر ابن دراج القسطلي ، في القصـــائد بسيطة الغــرض، ذات الموضوع الواحد مثل القصائد التي تكـــون مدحاً صـــرفاً حيث يبدأ بمدح من ظفر بأعدائه ، بوصف ذلك وتهنئته به ، ثم يتبع ذلك ذكر فضائل الممدوح ومحـــامده ويستمر في الأغـــراض التي تسير في الاتجـــاه نفسه دون أن يحـــدث خللاً أو اضطراباً أو تنافراً. [53]ومن هذه المقدمات ما نجده في قصائد المباركة بالعيد التي يستهلها بالتهنئة والدعاء له ؛ في مثل قوله: [54]

أَخلــقِ الدَّهْرَ بَقاءً واسْتَجِدّ عُمُــراً يَفْضُلُ عن عُمْرِ الأَبَدْ
والْبَسِ المَـجْدَ حُلىً بَعْدَ حُلىً واعْتَوِزهُ أَمَــداً بعـــدَ أَمَدْ

إن النصية [المدح] فيشعر ابن دراج قد هيمنت على معطياته وعناصره التكوينية على المتن النصي من أجل تشكيل النموذج الجمالي الذي يسدل أستاره على مساحات التخييل, لتستحضره المخيلة, وتعيش به متعة فائضة عن النفع, إذ يتحول المثال المجسد بجماليته إلى متخيل تمتلكه الذاكرة الإنسانية واللغة والرغبة .

تتراءى إشارات الصورة عند ابن دراج من خلال منظار تمتزج فيه الحقيقة بالمجاز, والحسي بالتجريدي, والمرئي بلا مرئي, فتنتشر إمكانات التأويل والفهم في فضاء جمالي لا مثيل لغيره ممن سبقوه ، فالتهنئة بالعيد ، وطلوعه على الممدوح بالفرحة والسرور مزج مدحه بالمجد والفرح بالانتصارات المتكررة على الأعداء دهورًا عديدة وأزمان مديدة .

ومن ذلك – أيضاً– تهنئة ممدوحه بالنصر؛ الذي أحرزه في بلاد الروم بقوله: [55]

هُوَ النَّصْرُ والتَّمْكِينُ أَدْرَكَ طالِبُـهُ ولاحَتْ وَشيكاً بالسُّعودِ كواكِبُهْ

وبَشَّرَ بالفتحِ المُبينِ افْـــتِتاحُهُ وأَحْرَزَتِ الصّـنْعَ الجليلَ عواقِبُهْ

خاتمة البحث:

كانت من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

١ – جاءت لغة الشاعر مستمدة من التراث الأدبي القديم ، وقد استطاع أن يبعث في اللفظة القديمة الحياة ، وإدخالها في الجملة الشعرية بتوظيفها توظيفاً فنياً .كما وظف الأوزان الخليلية كبحر الطويل والبسيط والوافر.،ومن الألفاظ البدوية التي بدت في مدائح ابن دراج الخيل ولفظ البادية ومرادفاته (الصحراء– البيد – –البيداء) ، كما ورد لفظ (الليل) الذي كان مرتبطاً بالحزن والهموم عند البدوي ،كما امتدح ابن دراج القيم البدوية ؛ التي تنشيء الإنسان البدوي نشأة سليمة ؛مثل التباهي بالنسب الرفيع والشجاعة والفروسية ومواجهة مخاطر الحروب.

٢– لغة الشاعر اتصفت باللين والسهولة ، والتبسط في القول ، والابتعاد عن الوحشي الغريب كما أفاد من التقنيات الصوتية والفنون البديعية ؛التي تبرز سمات الحضارة،ومن البحور التي نظم عليها الشاعر مدائحه (الرمل والخفيف)،وهما من البحور التي لم تكن لها الصدارة في شعر

البادية ، وهذه سمة من سمات الحضارة ،ومن تصوير الجانب المادي للحضارة ،وصف الخمر ، والألفاظ الدينية ؛ كأسماء الله الحسنى ، أو تضمين لألفاظ القرآن الكـــريم ، وذكر المدن العربية وما جاورهم من البلدان الأجنبية ، والمدن الأعجمية ، والألفاظ الأعجمية لأسماء الأعلام ,كما جاء بناء القصيدة ، في بعض مدائح ابن دراج ، بلا المقدمة الطللية ، التي كانت متبعة في الشعر البدوي ، بل تجلت سمة الحضارة ، بعض قصائده مثل شعراء المدن ونجد ذلك في القصـــائد البسيطة الغـــرض، ذات الموضوع الواحد مثل القصائد التي تكـــون خالصة للمدح ، ولا يدخل فيها الحديث عن الغربة ومعاناته لفراق أهله.

الهوامش :

١. ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. أحمد هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة عشرة ، القاهرة ١٩٥٨،ص.٣٠٣
٢. المرجع السابق ، ٣٠٧
٣. المرجع نفسه ، ٣٠٩
٤. ينظر .لسان العرب ابن منظور ،دار صادر، بيروت ، لبنان ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٧،مادة بدا
٥. ينظر . ، تهذيب اللغة ،الأزهري ، تحقيق . عبد السلام هارون وآخرين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، (د- ط) ، (د-ت) مادة بدا ،
٦. ،معجم المصطلحات الجعرافيةيوسف كولني ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي (د- ط) ،١٩٩٤، ص٩٧
٧. ينظر الحياة الاجتماعيةعند البدو،.محمد زهير مشارقة ،،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط١ ١٩٨٨،ص٢٧
٨. ينظر .تنمية المجتمعات الصحراوية صلاح مصطفى الفوال ، ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، (د-ط) ١٩٧٨ ، ص. ١٠٩
٩. ، شعر الأمير عبد القادر الرؤية والأداة وسيلة مرباح ، شهادة دكتوراه العلوم ، جامعة قسمطيمة ، الجزائر ، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص.١٦٠
١٠. ديوان ابن دراج القسطلي ، ،تحقيق . د. محمود علي مكي ، منشورات الكتب المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط١ ١٣٨١-١٩٦١، ص.٣٠١
١١. المصدر السابق ، ص ٢٣١
١٢. القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري- الظواهر والقضايا الأدبية ،عبد الحميد عبد الله الهوامة كلية الدعوة الإسلامية ، ط١، ٢،١٩٩٦/٣٤٥
١٣. ديوان ابن دراج القسطلي ، ٢٣١
١٤. المصدر السابق ، ٢٨٨-٢٨٩
١٥. المصدر نفسه، ٣٠١
١٦. المصدر نفسه، ٢١٨
١٧. المصدر نفسه،،٣٠٠
١٨. - ينظر .شعر الأمير عبد القادر الرؤية والأداة وسيلة مرباح ، ،٢٨٣
١٩. الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ،عبد الإله الصائغ ، المركز الثقافي المغرب بيروت لبنان، ط١ ، ١٩٩٧،ص.١٤٨.
٢٠. ديوان ابن دراج القسطلي ، ٢٣٧
٢١. المصدر السابق ، ١١٨
٢٢. المصدر نفسه ، ٤١٠-٤١١
٢٣. المصدر نفسه ، ٢٩٨
٢٤. المخصص ،ابن سيده ، تحقيق . خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط أولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م،٤/١٧٨
٢٥. ديوان ابن دراج القسطلي ، ١٥٤
٢٦. المصدر السابق، ٢١٩

٢٧.المصدر نفسه ١٠

٢٨.المصدر نفسه،٨٠

٢٩.المصدر نفسه، ٤٠٩

٣٠. المصدر نفسه ،٢٦

٣١.المصدر نفسه، ٣-٤

٣٢.المصدر نفسه، ، ٤١٠-٤١١

٣٣.ينظر .لسان العرب ابن منظور ، مادة حضر.

٣٤.ينظر.مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ،،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م،١/١٥٢

٣٥.ديوان ابن دراج القسطلي ، ٤٩٢

٣٦. المصدر السابق ، ١٠

٣٧. المصدر نفسه ،٣٩٢-٣٩٣

٣٨.ديوان ابن دراج القسطلي ، ٣٥

٣٩.ينظر الكافي في العروض والقوافي. التبريزي ، مصدر سابق،ص.١٠٩

٤٠.ديوان ابن دراج القسطلي ، ٢٤٩

٤١.المصدر السابق ،١١

٤٢.المصدر نفسه ، ١٥

٤٣.المصدر نفسه، ٣٦٨

٤٤.المصدر نفسه، ٢١٨-٢١٩

٤٥.المصدر السابق ،٣١٢

٤٦.المصدر نفسه ، ١٦٧

٤٧.المصدر نفسه ، ٨٩

٤٨.المصدرنفسه، ٤١٢

٤٩.المصدر نفسه ، ٤٠٨

٥٠.المصدر نفسه ، ٤٤١

٥١.ينظر .العمدة في محاست الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ،تحقيق . محمد محي الدين عبد الحميد ، ط . مطبعة السعادة ، بيروت ، ١،١٩٧٩/٢٣١

٥٢- ينظر . أثر المدن في الشعر العربي قبل الإسلام ، حاكم حبيب عزر الكريطي ، رسالة دكتوراه) ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٥١،١٩٨١

٥٣.ينظر .منهاج البلغاء وسراج الأدباءالقرطاجني ، تحقيق . محمد الحبيب بن خوجة ، دار الكتب الشرقية تونس ، ١٩٦٦،ص.٣٠٣-٣٠٥

٥٤.ديوان ابن دراج ، ،٣٦٨

٥٥.المصدر السابق ، ٣٧٨

Sources and references:

1. The Impact of Cities on Pre-Islamic Arabic Poetry, Hakim Habib Ezr Al-Kuraiti, Ph.D. Thesis), University of Baghdad, College of Arts, 1981 AD
2. Andalusian literature from the conquest to the fall of the caliphate. Ahmed Heikal, Dar Al Maaref, Cairo, thirteenth edition, Cairo 1958 AD
3. The Development of Desert Communities, Salah Mustafa Al-Fawal, Modern Cairo Library, Cairo, (D-i) 1978 AD
4. Nahdheeb Al-Lughah, Al-Azhari, Edited by Abdel Salam Haroun and others, the Egyptian House of Composition and Translation, Cairo, (D-i), (D-T).
5. The Social Life of the Bedouins, Muhammed Zuhair Mashariqa, Dar Tlass for Studies, Translation and Publishing, 1st Edition 1988 AD
6. Pre-Islamic Creative Discourse and Artistic Image, Abdelilah Al-Sayegh, The Cultural Center of Morocco, Beirut, Lebanon, 1, 1997
7. Diwan of Ibn Darraj Al-Qastalli, investigation. Dr. Mahmoud Ali Makki, Islamic Office Books Publications, Damascus, 1st Edition, 1381-1961AD
8. The Poetry of Emir Abdelkader: The Vision and the Tool Wassila Merbah, Ph.D. of Science, Kassem Tutima University, Algeria, 2005-2006
9. Al-Umda in Poetry and its Etiquette, Ibn Rasheq Al-Qayrawani, investigation. Muhammad Muhyi al-Din Abdul Hamid, i. Al-Saada Press, Beirut, 1979
10. The art of cutting poetry and rhyme, d. Safaa Kholousi, I, Foundation for Arab Publications, Beirut, 1977
11. The Andalusian poem during the eighth century AH - Phenomena and Literary Issues, Abdul Hamid Abdullah Al-Hawama, College of Islamic Call, 1, 1996 AD
12. Al-Kafi fi Al-Awad and Al-Tabrizi Rhymes, investigation. Hamid Al-Khalisi, Shaqiq Press Edition, 1982 AD
13. Lisan Al Arab Ibn Manzur, Dar Sader, Beirut, Lebanon, 1, Beirut, Lebanon, 1997 AD
14. Al-Makhass, Ibn Saydah, investigation. Khalil Ibrahim Jaffal, House of Revival of Arab Heritage, Beirut, First Edition 1417 AH 1996 AD
15. The Guide to Understanding the Poetry of the Arabs, Abdullah Al-Tayyeb Al-Majzoub, 2nd Edition, Dar Al-Fikr, 1970 AD
16. A Dictionary of Geographical Terms, Youssef Kolni, Cairo, Dar Al-Kitab Al-Jami (D-I), 1994
17. Introduction by Ibn Khaldoun, Ibn Khaldun, Dar Al-Fikr for printing, publishing and distribution, Beirut, Lebanon, 142 AH - 2001 AD
18. Minhaj al-Balghaa and Siraj of the Carthaginian writers, investigation. Muhammad al-Habib bin Khoja, Dar al-Kutub al-Sharqiah, Tunisia 1966 AD